موقع الشيخ التركماني
https://www.turkmani.com

مقال: التسامح وسلامة النفس البشرية: عند ابن حزم الأندلسي

المصدر: مجلة الثقافة المغربية

بقلم: الزبير مهداد

رقم العدد: 39

تاريخ الإصدار: 01 مايو 2019

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

https://www.turkmani.com

الزبير مهداد

ملـــف العـــدد

التسامح وسلامَة النفس البشرية عند ابن حزم الأندلسيّ

ابن حزم الأندلسي

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بقرطبة عام 384 هـ/994 م، في بيت رياسة ووجاهة وثراء، قرأ القرآن واشتغل بالعلوم الشرعية وبرز فيها، كما درس الطب والمنطق وألف فيهما، كما ألف في التاريخ والشعر وغير ذلك من العلوم والفنون. تميز بقدرته على الانهماك في القراءة والبحث والاستغراق فيهما والتفرغ للدراسة، وكان فقيها مُنَاظِراً مُدافِعاً عن العقيدة، انْتَصَب لتصحيح المفاهيم، وتَصدّى للفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي، وكابدَ الحياة والناس، كان شافِعِيَّ المذهب، ثم أصبح ظاهريا، فاشْتُهِر بمذهبه الظاهري في الفقه، ولُقِّبَ بابن حزم الظاهري. وقد عانى كثيراً بسبب آرائه التي انفرد بها، وبسبب حِدَّته في مواجهة غيره من العلماء والفقهاء، والتصدي لهم، فانْبَرَوْا للتَّضْييقِ والتآمُر عليه، وألَّبُوا الجماهير، وأوْغَلُوا قلوبِ السَّلاطين، فامْتُحِنَ بالنَّفْي، وقاسَى الطّرد والسِّجن، وأُحْرِقَتْ كتبه، إلا أَنَّ هذه المِحَن لم تَزِدْه إلا صلابة وشِدَّةً وجُرأة وثباتاً على الموقف. حتى توفي بقَرطبة نفسها في شعبان عام 456 هـ/1064 م، وترك مؤلفات، بَلَغ عددها أربعمائة، بين كُتُب طِوال، ورسائل قصيرة كالمقالات، اتُّخِذَتْ مراجع لكثير من المُصَنَّفاتِ التي كُتِبَتْ بعده، ومَتَحَ منها كثير من الفقهاء والعلماءِ، المعرفةَ والمنهجَ.

التَّسامُح الدِّينيّ

عاش ابن حزم في الأندلس، هذه البلاد التي تُعَدُّ مَضْربَ المثل في التَّعايُش وقبول الاختلاف والحوار مع الآخر. انْصَهَرْت فيها المذاهب والفِرَق والأديان، فعلى مستوى التَّسامُح الديني، تَعامُل ابن حزم وسيرتُه تُؤشِّران لتسامُحه وقابليته للتعايش الديني حتى مع الأديان الأخرى، وما يحكيه عن نفسه يدل على تسامحه، واحترامه الآخَرَ المختلف، فقد كانت له مجالس مع مواطنيه من الديانات الأخرى، تتخللها مناقشات ومناظرات وحوارات فكرية.

عاش ابن حزم في الأندلس، هذه البلاد التي تُعَدُّ مَضْربَ المثل في التَّعايُش وقبول الاختلاف والحوار مع الآخر. انْصَهَرْت فيها المذاهب والفِرَق والأديان

كما تعايشت في الأندلس المذاهب الفقهية، والتيارات الفكرية والمدارس الفلسفية، بشكل لافت للانتباه، فالحضور القوي للمذهب المالكي الذي تبنته الدولة وعمل به الناس، لم يمنع من اعتناق مذاهب أخرى، والتعايش معها، وبعض الولاة تبنوا مذاهب مختلفة، لكنهم لم يفرضوا خياراتهم المذهبية الشخصية، وتركوا للناس مذاهبهم وعاداتهم.

ويتحدث ابن حزم في إحدى رسائله عن ظاهرة لطيفة، وهي الصّداقات القوية، والمودة المتينة، والعلاقات الحميمة التي كانت تربط بين أشخاص اختلفتْ مذاهبهم اختلافاً بَيِّناً، ومن أمثلة ذلك علي بن محمد من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، يصرّح بتفضيل عثمان على علي بلا تَقِيّة، مع أنه من أحفاد علي، ومحمد بن عبد الرحمن من أحفاد عثمان بن عفان رضي الله عنه يصرّح بتفضيل علي على عثمان بلا تَقِيّة، مع أنه من أحفاد عثمان، ثم يعلق ابن حزم ويقول «وكلاهما متكلم أديب نبيل وَرِع».

وذَكر قصة محارب بن دثار الفقيه السُّنّي، وعمران بن حطان من الخوارج الصفرية، وأنهما «كانا صديقين مخلصين وزميلين إلى الحج لم يتَحَارَجَا قَطّ». وذكر قصة داود بن أبي هند إمام السنة، وموسى بن سيار من أئمة القدرية «كانا صديقين مُتَصافِيَيْن خمسين سنة، لم يتَحارجَا قط». وقصة سليمان التيمي إمام أهل السنة، والفضل الرقاشي إمام المعتزلة، «كانا صديقين مُتصافِيَيْن، وتزوج سليمان بنت الفضل». وفي مجال التعايش والتسامح المذهبي ذكر الصداقة التي كانت تربط هشام بن الحكم إمام الشيعة، وعبدالله بن زيد الفزاري إمام الإباضية ذكرهما بقوله: «صديقان مخلصان في دكان واحد، لم يتحارجا قط». فاختلافهم في الرأي لم يفسد لمودتهم قضية، واستطاعوا بتسامحهم أن يتجاوزوا الأنانية الفردية التي قد تدعو إلى مُجافاة المخالفين، وقَطْع أواصر التعاون والتفاهم معهم. هذه الروايات الحزمية تقدم نماذج متميزة في التعامل مع المختلف المذهبي والآخر دينياً ومذهبياً.

التَّسامُح النَّفْسيّ في كتاب «طَوْق الحَمَامَة...»

إن روح التَّسامُح، وروح السَّماحَة تَبدُوَان في حُسن المعاشرة، ولُطْف المعاملة، ورعاية الجوار، وَوَسْع المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، من الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية. وهو ما كان يتصف به ابن حزم، فقد اجتمعت فيه صفات طيبة كثيرة، ذكرها الذين كتبوا عنه، لذلك كثر أصدقاؤه من مختلف الديانات والمذاهب والطوائف.

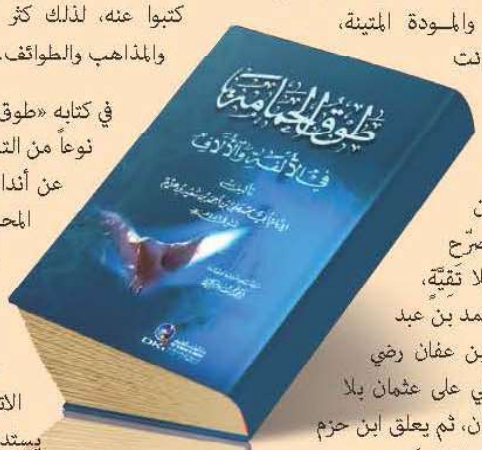

في كتابه «طوق الحمامة...» يعد ابن حزم المَحَبَّة نوعاً من التسامح، فإذا كانت الكائنات تبحث عن أندادها وترتبط بمثيلاتها، فإن عاطفة المحبة لا تتقيد بهذه القاعدة، لأن المرء أحيانا قد يعشق من هو دونه جمالا وحسنا، يقول ابن حزم: «وقد عَلِمْنا أن سرّ التَّمازُج والتَّبايُن في المخلوقات إنَّما هو الاتصال والانفصال، والشكل دَأَبَ يستدعي شكله، والمثل إلى الأضداد والموافقة في الأنداد، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل، وسنخها المهيأ لقبول الإنفاق والميل والتوق، تصرف الإنسان فيسكن إليها، والله عز وجل يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها)، فجعل علة السكون أنها منه، ولو كانت علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص في الصور، ونحن نجد كثيرا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره، ولا يجد مَحيداً لقلبه عنه». فالمحبة أرفع درجات التسامح، ومجتمع تسود فيه معاني المحبة يمكن اعتباره مجتمعا مُتسامِحاً.

ونقيض التسامح هو التعصب وسوء الظن الذي قد يؤدي إلى نعت الناس واتهامهم بما يسيء إليهم، ويُوغِل الصدور ضدهم، وهو ما أراد أن ينقله إلينا ابن حزم، حرصا منه على تبرئة نفسه مما قد يرميه به خصومه من التهم التي تتأسس على الظنون السيئة: «وبالجملة فإني لا أقول بالمراياة، ولا أنسك نسكا أعجميا، من أدى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهي عنها، ولم ينس الفضل فيما

فالتسامح محبة، والمحبة تسامح، فلا يمكن الحديث عن المحبة دون الحديث عن التسامح، أو العكس، فالمحبة تُرَقِّقُ الشعور، وتُهَذِّب الوجدان، وتُزكِّي النفس، ما يهيئها لأن تميل إلى التسامح، فالنفس منبع المحبة، والمحبة أصل السماحة

بينه وبين الناس، فقد وقع عليه الإحسان، ودعني مما سوى ذلك، وحسبي الله».

فالتسامح محبة، والمحبة تسامح، فلا يمكن الحديث عن المحبة دون الحديث عن التسامح، أو العكس، فالمحبة تُرَقِّقُ الشعور، وتُهَذِّب الوجدان، وتُزكِّي النفس، ما يهيئها لأن تميل إلى التسامح، فالنفس منبع المحبة، والمحبة أصل السماحة.

واللافت للانتباه، أن ابن حزم، على ما أبداه من روح التسامح في نظرته إلى الأحكام المتعلقة بعاطفة العشق والمحبة، فإنه لم يُغَالِ في ذلك، بل انْضَبَطَ لأحكام الشَّرْع والقواعد الأخلاقية الاجتماعية، فشَدَّدَ كثيرا على فضيلة العفّة، مُوازناً بين التسامح مع عاطفة المحبة، وبين الالتزام بالقواعد الشرعية والأخلاقية. فالتسامح والتَّعَفُّف للنفس وللغير، هو الذي يلين القلب، ويُرَقِّق الشعور «من أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة». إن التسامح والأخـوة للإنسان والأنسنة أخلاق وقيم إسلامية يحتاجها الناس لأنها دعامة الصحة النفسية.

الصحة النفسية

إن الصحة النفسية هي الشَّرط أو مجموع الشروط اللازم توافرها حتى يتحقق التّكيُّف السليم بين المرء ونفسه، وبينه وبين العالم الخارجي، تكيُّف يؤدي إلى أقصى ما يمكن من الكفاية والسعادة لكل من الفرد والجماعة التي ينتمي إليها، وهو ما لمح إليه ابن حزم في كتابه الثمين «الأخلاق والسير». فمقياس الصحة النفسية هي التوافق الداخلي المصحوب مع حسن التكيف مع المحيط، بحيث يؤدي إلى أقصى درجة من الكفاية والسعادة.

يُحْصي ابن حزم عدداً من صفات وسمات الشخصية السَّوِيَّة، منها قبول الفرد لذاته واحترامه لها، والشعور بالرضا عن حياته؛ وتَقَبُّل الآخرين وتقديرهم والتفاعل معهم ومبادلتهم الأخذ منهم بالعطاء لهم، والتعاون معهم، والصبر والتحمل، والاستقلالية في اتخاذ القرار، وطلب العلم والعمل الإنتاجي.

التسامح رديف الإيجابية

يوصي ابن حزم بالإحسان في التعامل والتفاعل الاجتماعي، وبعدم مقابلة السوء بجنسه، «من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ من أساء إليه منهم بمثل فعله فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم بمثلها فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم».

وبذكاء ونباهة فائقين وبمبادرة غير مسبوقة في أدبيات التربية الإسلامية، ينتبه ابن حزم إلى ضرورة إحلال الثواب والتعزيز الداخلي، محل التعزيز الخارجي لتثبيت السلوك وترسيخه وتكراره، بعرض قاعدة في بَذْلِ المعروف، مفادُها أن على من تصدى للناس بخدمتهم ومساعدتهم، وبذل المعروف لهم ألا ينتظر عاقبة بذله ومعروفه منهم، لأن ذلك عليه مدار تأليف القلوب والتأثير في الناس، وبه اتقاء الشرور من خبث نفوسهم، فيتعين على المرء أن لا يعنى بالمصالح الوقتية والنتائج النفعية المادية أو المعنوية المترتبة عن سلوكه الإيجابي مع الناس، ويجب أن يتجرد من كون عمله مشروطا بنتائجه وعواقبه التي تعززه، فالتعزيز القوي هو أن يكون راضيا نفسه عن عمله بيقين نية إرضاء الله تعالى بتجريد العمل ابتداء وانتهاء لله وحده «وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل».

التجربة السارة التي يُسْفِر عنها الإحسان للغير، تُعَدُّ بمنزلة ثواب ومكافأة، وقد انتبه ابن حزم إلى أهمية إحساس المرء بالرضا الذاتي عن سلوكه الإيجابي وتسامحه، وثقته في ثواب الله ونيل رضاه، الذي يعمل كداعم إيجابي وقوي للسلوك، يُسْهِمُ في تكرار الاستجابة، ويُشَجِّع على إعادة النمط السلوكي الذي أدى إلى بعث الرضا والسرور في نفس المرء. «ولا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف».

الدفع بالأحسن هو الأداة الفعالة للتغلب على أنانيتنا التي تهزمنا، وعلى هوى نفوسنا بِرَدْعِها عن الطبع الشهواني والطبع العدواني، إنه التسامح الشامل الذي يعترف للآخر بالحق في الاختلاف، بل بالحق في الخطأ أيضا، اعتبارا لطبيعته البشرية الهشة. وهو أيضا التَّحَلِّي بالقدرة على حُسْن الاستماع للرأي الآخر، وتفادي الغضب، وأن نحب لغيرنا ما نحب لنفسنا.

إن الدفع بالأحسن يقتضي تحسين الظن بالآخر، وطرح الأحكام المسبقة في الحوار، وفتح الباب واسعا أمام مبادلة المحبة والاحترام والوئام والتفاهم والانسجام، ثم تحقيق العيش المشترك بين الشعوب على اختلاف طبعها؛ إنما ذلك يحول دون هوى النفس والأنانية.

الأنانية نية خبيثة، تتعارض مع التسامح، وتعترض على مجرد التفكير فيه، وتقدم لنا أكثر من سبب لنبذه والإحجام عنه، وتُقْنِعُنا بأهمية الانتقام والقصاص ولذة الانتصار ومتعة الغَلَبَة، وهذا ما يزيد في القلق وعذاب النفس واضطرابها. ولا سبيل لعلاج هذا القلق إلا بالسماحة وتحسين النية والتفاؤل بالخير وتمنيه للإنسانية جمعاء. يقول ابن حزم: «رأيت أكثر الناس يتعجلون الشقاء والهَمّ

إنه التسامح الشامل الذي يعترف للآخر بالحق في الاختلاف، بل بالحق في الخطأ أيضا، اعتبارا لطبيعته البشرية الهشة

والتعب لأنفسهم من نيات خبيثة يضبون عليها من تمني الغلاء المهلك للناس، وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقينا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئا مما يتمنونه أو يوجب كونه. وإنهم لو صَفَوْا نياتهم وحسَّنُوها، لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، فأي غُبْن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها، وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها؟»؛ فسماحة النفس تفضي إلى السعادة، وراحة البال والإحساس بالأمان، وسبيل لطمأنينة النفس التي امْتَدَحَها الله عزوجل كثيرا في القرآن الكريم.

ويضيف ابن حزم في كتابه قائلا: «حد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعا، وتتجافى عن حقك لغيرك قادرا، وهو فضل أيضا، وكل جود كرم وفضل وليس كل كرم وفضل جودا. فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل وليس جودا، والفضل فرض زدت عليه نافلة». فيربط بمهارة بين التسامح والإيجابية التي تشمل الخصال السامية، كالكرم والجود والسهولة واليُسْر في المعاملة، ولَين الحديث، ومقابلة الإساءة بالعفو والصفح عند المقدرة، والتغافل عن هفوات الناس، والبحث لهم عن الأعذار، وغير ذلك من الفضائل والشيم الكريمة.

ولا ينبغي أن يكون قاصرا على التعامل بين المسلمين، بل يتعيّن أن يَعُمَّ التعامل بين جميع الناس، على اختلاف

إن الدفع بالأحسن يقتضي تحسين الظن بالآخر، وطرح الأحكام المسبقة في الحوار، وفتح الباب واسعا أمام مبادلة المحبة والاحترام والوئام والتفاهم والانسجام، ثم تحقيق العيش المشترك بين الشعوب على اختلاف طبعها؛ إنما ذلك يحول دون هوى النفس والأنانية

أعراقهم ومعتقداتهم، ولو كان العداء مُسْتَحْكِماً بينهم، فإن ذلك لا يُسْقِط شرط العدالة والإنصاف، ولا يُوجِبُ الظلم والاعتداء، مع وجوب التحفظ ضمانا للسلامة: «لا تُسْلِم عدوك لظلم ولا تظلمه، وساوِ في ذلك بينه وبين الصديق، وتحفَّظ منه، فغاية الخير أن يَسْلَمَ عدوك من ظلمك ومن تَرْكِكَ إياه للظلم».

العِلْم للارْتِقاء بالذَّات

نال موضوع العلم في كتاب ابن حزم أهمية خاصة متميزة، فالعلم في رأيه هو سبب للارتقاء بالذات، وبلوغ الكمال الإنساني، واكتساب الخصال الحميدة، ولا يقتصر مفهوم العلم على العلوم الدينية، بل يشمل جميع العلوم التي تفتح أمام العقل الآفاق الرحبة الواسعة للبحث والتأمل والاعتبار، وتُنَمِّي قدرته على التمييز الدقيق بين الأشياء وأضدادها، وتُمَكِّنُه من حسن الاختيار والإقبال على الفضائل، وتعرف ذاته وعيوبها وتكميل نقائصها.

والعلم يتطلب تعَلُّماً وجُلوساً في الحلقات ونقاشا، ومشاركة في أنشطة الجماعة وأفكارها، أي تفاعلا اجتماعيا محكوما بآداب التعلم مع الشيوخ، ومع المتعلمين والإحسان في التعامل، ومُبادَلَة مشاعر الأُلْفَة والمودة، ما يُسْهِم بشكل قوي في تحقيق التَّكَيُّف الاجتماعي للفرد، وسبيل ذلك الصبر على الأذى، وتحَمُّل شروط الاندماج بالتخلي عن الطباع والعادات والسلوكات التي تَحُولُ دون تحقيقه، أو تُهَدِّد بحصول النَّبْذِ والجَفاء. فالتفاعل الاجتماعي السَّوِيّ، والتَّكَيُّف النفسي السليم، يتطلبان إلماما بِحَدٍّ أساس من الثقافة الاجتماعية، وتَعَرُّف القيم والتمييز بينها ومراعاتها، والصبر والتحمل، وتهذيب الغرائز الفطرية والسمو بالرغبات.

وبتحديده لهذه الصفات التي تلخص بإيجاز مفهوم الطبيعة الإنسانية التي تتميز بالعمل والتزام القيم الأخلاقية، إنما يدعو للإيجابية الفردية التي لا تتم إلا بتكميل ذات الفرد باكتساب العلوم، وبرصد عيوب النفس وإصلاحها، وبسعة الصدر والبحث عن الأعذار للغير، ومعاملة المُسيئين بالعفو والحسنى، وعدم مبادلتهم نفس المعاملة، والعمل لتحقيق مصالح الجماعة، والاغتباط بالصفات السامية وقوة التمييز وحسن العمل.

«لا تُسْلِم عدوك لظلم ولا تظلمه، وساوِ في ذلك بينه وبين الصديق، وتحفَّظ منه، فغاية الخير أن يَسْلَمَ عدوك من ظلمك ومن تَرْكِكَ إياه للظلم»